روايتان تعليميتان وجوديتان

بقلم عدنان ابن ذريل

الرواية التعليمية نمط حديث في التاليف القصصي، والذهني ؛ وتقوم على السرد ، والحوار ، وعرض الافكار .. السرد يدعم بناء الرواية ، وموضعها ؛ والحوار يوضح ملامح الشخوص فيها ، واتجاهاتهم الفكرية ؛ والعرض مزيج من التقرير ، والانتقاد ، والتوجيه ؛ وقد اصطنع الرواية التعليمية اليوم كثيرون من رواد الادب الحديث ؛ أمثال أحمد شوقي في شيطان بنتاؤر ، وميخائيل نعيمة في مرداد ، وامين نخلة في ذات العماد ، وجبران خليل جبران في النبي ، وحديقة النبي ، وغيرهم ؛ واصطناعهم لها على هذا القدر دليل قوي على انها ، على اختلاف الوانها ومميزاتها عندهم ، نمط مستحب في ادبنا العربي الحديث، يؤثره الادباء والمفكرون على غيره ، للتعبير عن افكارهم ، واميالهم في الوجود ، والحياة ..

والحديث في فنية هذا النمط من الفن الروائي طويل، سواء الجانب الفني ، والاسلوبي فيه ، البناء ، والموضوع ، والحوار ، والاشخاص ؛ او الجانب الذهني ، وصوره التقريرية ، والانتقادية ومضمونه المتنوع ، والمتوخى ؛ وسأقصر الحديث هنا على مثلين تطبيقيين فيهما ، هما روايتا جبران خليل جبران الخالدتان ، النبي ، التي ترجع الى عام ١٩٢٣ ، وحديقة النبي ، التي ترجع الى عام ١٩٢٣؛ فأوضح شيئا من فنيتهما ، وعلى الخصوص بنائهما ؛ واعرض جانبا من جانبهما الذهني ، وبصورة خاصة المنحى الوجودي فيهما .

واذا حاولنا رسم خط بياني للتجربة الجبرانية ، او حاولنا ايضا تحديد منحنياتها في حياة جبران خليل جبران، في طريقه الى ذاته ، وشخصيته ، والتي وصل اليها بعد لأي ؛ لوجدنا انفسنا امام عناصر عدة من المؤثرات الداخلية، والخارجية ، اثرت في هذه التجربة الادبية، والفكرية الفذة، فطبعتها بطابع الاصالة ، والابداع ، منها البيئة ، والثقافة، والطباع ، والظروف ، والموهبة .. ولعل اهم هذه العناصر الارث الثقافي العربي ، الذي كان يعيشه هذا الاديب الموهوب ، المبدع ؛ هذا الارث الخصيب ، والنير الذي حمله من دراسته الاولى ، والتي كانت في لبنان ، او مطالعاته ، وقراءاته ، او اتصاله الادبي ، والفكري بالعالم العربي .

وقد غرف جبران ايضا من معين الثقافة الغربية الحديثة، وفلسفاتها ؛ فاستساغ منها ما استساغ، ورفض ما رفض؛ والمعروف عنه اعجابه بالفيلسوف الانساني نيتشه ، وتأثره به : لقد حاول تقمص شخصيته ، واعتناق افكاره ، فلم يفلح في ذلك ؛ فدللت مرحلة من مراحل تطوره الادبي، والفكري على مجاراته في افكاره ، وتجربته ، حتى مرحلة تمرده ، وكفره بالقيم الانسانية، مرحلة تأليفه كتبه العواصف، والمواكب ، والمجنون ، والسابق ، والتي كان يكتب فيها بين عام ١٩١٤ ، وعام ١٩٢٠ ؛ كما دللت مرحلة اخرى ، على استقلاله عنه في كثير من المسائل الفكرية الكبرى ، مع الاصطناع عليه لاسلوب الرواية التعليمية . وهي مرحلة تاليف النبي . عام ١٩٢٣ . وحديقة النبي . صدر عام ١٩٣٣. والتي هي من مراحله الاخيرة ..

جبران في النبي ، متامل اجتماعي ، حر ، يدعو الى العمل ، والحرية ؛ وهو في حديقة النبي ، متامل كوني ، ووجودي ، مؤمن بالله ، وبالمحبة ، والعود الابدي ... التجربة الفكرية ، والادبية في الكتابين واضحة المعالم ، لا لبس فيها ، ولا غموض ؛ بل ان البذور الصوفية ، والكونية، والوجودية التي لهذه التجربة ، نلمحها في النبي ، قبل حديقة النبي ؛ وهي نفسها نلمحها في رواياته ، وقصصه، ومقالاته السابقة تتطرع في نفسه مع روافد لتيارات مختلفة اصطدم بها كالالحاد ، والمادية ، واهدار القيم ..

في النبي ، يقول في المحبة :

ـ اذا أشارت المحبه اليكم فاتبعوها ،
وان كانت مسالكها صعبة متحدرة ،
واذا ضمتكم بجناحيها ، فاطيعوها ،
وان جرحكم سيفها المستور بين ريشها ،
واذا خاطبتكم المحبة ، فصدقوها ،
وان عطل صوتها احلامكم وبددها كما يجعل الريح الشمالية البستان قاعا صفصفا . ـ (طبعة مصر . ص٢١)

ويقول فيه في العمل :

ـ اجل، ان العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة، فاذا لم تقدر ان تشتغل بمحبة ، وكنت متضجرا ملولا ، فلاجدر بك ان تترك عملك ، وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح، وطمأنينة ـ (نفس المصدر ، ص ٣٩)

ويقول فيه في الصداقة :

ـ ان صديقك هو كفاية حاجاتك ،
هو حقلك الذي تزرعه بالمحبة ، وتحصده بالشكر ،
هو مائدتك ، وموقدك .
لانك تأتي اليه جائعا ، وتسعى وراءه مستدفئا . ـ (نفس المصدر ، ص ٧٣)

وفي حديقة النبي ، يقول في الروحانية :

ـ انتم ارواح رغم انكم تتحركون داخل هذه الاجساد. وكالزيت الذي ينير في الظلام انتم مشاعل رغم انها تنير داخل مصابيح .

لو كنتم اجسادا فحسب لكان وقوفي امامكم، وحديثي اليكم فراغا عميقا ، او كما ينادى ميت امواتا. ولكن ليس الامر هكذا ، كل ما لا يعتريه الفناء فيكم هو حر في الليل ، والنهار . ولن يحبس او يقيد لان هذه هي ارادة العلي ، انتم نسماته ، كالريح ما أعسر القبض عليها ، او تقييدها ، وانا ايضا نسمة من نسماته ـ (طبعة مصر ـ ص ٢٩)

ويقول فيه ، في الله :

ـ يا ملاحي ، ويا اصدقائي ، كان من الخير ان نقل الكلام عن الله الذي لن نظفر بادراكه ، وان نكثر الكلام عن بعضنا البعض ، علنا نستطيع ان نفهم ذواتنا .. ولكن اود ان تعرفوا اننا انفاس الله وعبيره ، نحن الله ، في ورقة الشجرة ، وفي الزهرة ، واحيانا كثيرة في الثمرة. ـ (نفس المصدر ـ ص ٤٠)

ويقول فيه في التواد ، والطمأنينة :

ـ لسوف تعلون فوق اقوالكم بيد ان طريقكم سوف يبقى كما هو ايقاعا ، وعبيرا ، ايقاعا للمحبين ، والمحبوبين ، وعبيرا لاولئك الذين يودون ان يقضوا حياتهم في حديقة.. ولكنكم سوف تعلون فوق اقوالكم الى ذروة تسقط عليها أتربة النجوم ، وستبسطون أياديكم حتى تمتلىء ، ثم تضطجعون ، وتنامون ، كما ينام طائر صغير ابيض ، في عشه الابيض ، ثم تحلمون بغدكم كما تحلم الزنابق البيضاء بالربيع ـ (نفس المصدر ـ ص ٤٤)

والحدب على المجتمع ، واشتراع المحبة بين الناس ، ثم الايمان بالله ، والحلم بيوم سلام ، ووئام .. كلها ظاهرة في هذه الامثلة ، وغيرها من كتابيه العظيمين ؛ انه روحي ، صوفي ، حلولي ؛ انه اجتماعي ، مؤمن ، حر ؛ انه محب للناس ، محب للعمل ، محب للتعالي ..

ولا مراء ان ذلك كله نفحات انسانية ، مؤمنة ، حرة ، ولكن الانسانية هنا ، ليست انسانية مذهب ، او استنتاج ، وانما انسانية معاناة ، وتصوف .. ولقد كانت الملاحد الوجودية من ابرز روافدها ، سواء في الفكر ، او الشعور ، وهي التي عاشها جبران ، وبشر بها ..

في النبي ، يقول في العقل ، والهوى :

ـ ان العقل ، والهوى هما سكان النفس ، وشراعها ، وهي سائرة في بحر العالم ، فاذا انكسر السكان ، او تمزق الشراع فان سفينة النفس لا تستطيع ان تتابع سيرها ، بل ترغم على ملاطمة الامواج يمنة ، ويسرة حتى تقذف بكم الى مكان امين تحفظون به في وسط البحر ـ (ص ٦٥) حيث الاعتراف بهذين الطيفين العزيزين ، على حد قوله أيضا ، (ص ٦٦) والاشادة بوظيفتهما في الحياة .. ولكن النظرة الحلولية ما تلبث عنده ان تصبغ فكره ، ولحوده ، فيقول :

ـ واذا جلستم في ظلال الحور الوارفة ، بين التلال الجميلة ، تشاطرون الحقول ، والمروج البعيدة سلامها ، وسكينتها ، وصفاءها ، فقولوا حينئذ في قلوبكم : ان الله يستريح في العقل ؛ وعندما تعصف العاصفة ، وتزعزع الرياح أصول الاشجار في الاحراج ، وتعلن الرعود والبروق عظمة السماوات ، فقولوا حينئذ في اعماق قلوبكم متهيبين خاشعين : ان الله يتحرك في الاهواء .

وما دمتم نسمة من روح الله ، وورقة في حرجه ، فأنتم أيضا يجب ان تستريحوا في العقل ، وتتحركوا في الاهواء . ـ (ص ٦٦ ـ ٦٧)

وبحق ، ان الحلول عنده يترفده دوما وحدة وجود . الا ان ذلك كله ابتداء من الذات ، من التجربة ، من الحياة مع الاخرين ، ومن التعاطف مع الكون ، والعالم .. الامر الذي ظل يمده بقبسات وجودية ، مشرقة ، هي وراء حس الحرية ، والتوق عنده...

وفي حديقة النبي ، يقول في الزمن :

ـ خذ بين يديك الان حفنة من التراب . ما عساك واجد فيها ؟. أحبة قمح ام دودة أرض ؟.. لو ان راحة يدك مستطيلة العمر بما فيه الكفاية ، لاصبحت هذه الحبة غابة ، واصبحت هذه الحشرة سربا من الملائكة . ولكن لا يغربن عن بالك ان السنين التي تحول البذور الى غابات والحشرات الى ملائكة هي ابنة « اللحظة » ان السنين كلها هي « اللحظة . » ـ (المصدر ـ ص ٣١)

فالنظرة الكونية ، والمادية الى الزمن هنا ، يتجاذبها شعور بالتطور ، والعود الابدي ، و التجربة الانية ؛ ومن ذلك كله يخلص المتأمل الى ترجيح التجربة الآنية ، حتى غدا الزمن عنده لحظة ، او مجموعة لحظات ..

استمع اليه بلغته الشاعرية ، الرمزية ، يحاول تحديد المعرفة :

ـ ان النهار يهبكم قوة المعرفة . ويعلم اصابعكم ان تحذق فن الاخذ . ولكن الليل هو الذي يقودكم الى خرافة الحياة .

من الشمس تتعلم جميع الاشياء التي تنمو كيف تشتاق الى الضوء . ولكن الليل وحده هو الذي يرفعها الى النجوم .

فسكون الليل هو الذي ينسج حجاب الزفاف فوق اشجار الغابة ، وفوق ازهار الحديقة ، ثم يقيم بعد ذلك حفلا ينفق فيه بسخاء ، ويعد حجرة الزواج . وفي خلال هذا الصمت المقدس يحمل بالغد في رحم الزمان». (حديقة النبي ـ ص ٢٨ ـ ٢٩)

حيث الثورة على المنطق ، والحدود ، والوضوح ، وحيث ايثار المعاناة ، والتعالي ، والتعاطف ، وهي ايضا امشاج وجودية .. ومن هنا قوله بسبق الوجود على الماهية أيضا : وذلك اثر توضيحات كونية ، وتطورية في الحياة والعود الابدي :

ـ الان .. معنى ان اكون هو ان اكون حكيما بيد انني لن اكون حينئذ غريبا لدى الاحمق ، هو ان اكون قويا ولكن لا اكون عاطلا كالضعيف ، هو ان الهو مع الصغار لا كأب بل كرفيق يتعلم العابهم .

وهو ان اسلب ، واغش ، واخدع ، نعم أن أضلل ، واسقط في الشباك ثم يسخر مني الناس ، لكنني في هذا كله انظر باسما من قمة ذاتي الكبرى عالما ان ثمة ربيعا سيأتي الى حديقتي ، ليرقص في اوراقها ، وثمة خريفا سوف ينضج اعنابها .. (المصدر نفسه ـ ص ٤٥ ـ ٤٦)

ان انسانية جبران حقا انسانية المؤمن ، الصادق ، انسانية المحب للناس ، والداعي الى السلام ، والوئام... وقد دعمها باساس متين من المعاناة الفردية ، والجماعية ، وعبر عنها في تناقضها ، وانسجامها ، بصدق ، وامانة ، وترفع ..

دمشق

عدنان ابن ذريل

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

هاتف : ٢٢٢٩٢١